تمهيد

تمتد الحملات الصليبية، التي يُطلقُ عليها أحياناً اسم «الحركة» على مدى قرنين من الزمن. وهي حركةٌ أطلقت موجاتٍ جنونيةً من الكراهية والعنف، لم تعرف مثيلاً لها قبل عصر التكنولوجيا، والسوط الهتلري. وقد جرى إطلاق ذلك الجنون تحت اسم الدين، ومن جانب أوربان الثاني، بابا الكنيسة المسيحية، سنة 1095. وكانت تلك المحاولة لإعادة توجيه طاقات البارونات الأوروبيين، من النزاعات الدموية المحلية، إلى غايةٍ «نبيلةٍ»، تتمثل في استعادة الأرض المقدَّسة (وقبر المسيح) من أيدي «المسلمين». بيد أنّه ما إن أُطلقت تلك الطاقةُ من عِقالها، حتى صار ضَبْطُها غير ممكن. بدأ التوجُّه نحو العنف بمذبحةٍ ضد اليهود، كانت المقدمة للمذابح المتوالية ضد المسلمين في بلادهم، وهي المذابح التي بددت ثروة أوروبا البشرية، وانتهت بخسائر إنسانية تفوق التصور لدى سائر الأطراف. وقد شكا برنارد من كليرفو، الداعية الكبير للحرب الصليبية الثانية، من أن تلك الحملات ما تركت لكل سبعِ نساء أوروبيات غير رجلٍ واحدٍ للاعتناء بهنّ.

لقد كانت هناك خمس حملاتٍ صليبيةٍ رئيسية (بالإضافة إلى اندفاعاتٍ متعددةٍ أُخرى حرَّكها الدافع نفسه). ويمكن القول إنّ الحملة الأولى هي التي حققت نجاحاً ملحوظاً فقط. فقد تمكَّن خلالها الصليبيون من احتلال القدس، التي غمرت شوارعها وأزقتها دماءُ المسلمين واليهود. أما الحملات الأخرى

فلاقت الفَشَل؛ وإن ظلّت ثلاثٌ منها قريبةً من الوصول إلى هدفها المتمثل بالمدينة المقدسة. وما نجحت الحملة الأولى في احتلال القدس إلاّ لأنّ العرب[1] كانوا منقسمين. وقد فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق هدفها لأنّ المصريين والشاميين توحّدوا وأقاموا إمبراطوريةً قوية. ونجح فريدريك الثاني في الحملة الخامسة في استعادة المدينة المقدسة عن طريق التفاوض. لكنه ما لبث أن غادر فلسطين بعد أسابيعَ قليلةٍ، تاركاً البلاد مغطّاةً بالقاذورات والبقايا من أبناء شعبه.

بيد أنّ الحملة الصليبية الثالثة، والتي امتدت ما بين سنتي 1187 و1192، هي الأكثر غرابةً وإثارةً للاهتمام. فقد كانت أكبر تجمُّع «عسكري» عرفته العصور الوسطى (المبكّرة)، وهي التي أوصلت نيران الروح الصليبية إلى أقصى درجات التأجُّج. وقد يكون الجانب الأكثر أهميةً في تلك الحرب، أنها دفعت إلى المسرح شخصيتين كانتا بين الأبرز والأروع خلال الألف الثاني للميلاد، وهما: **صلاح الدين**، ملك مصر والشام والجزيرة العربية والعراق من جهة؛ **وريتشارد الأول**، ملك إنكلترا، الملقَّب **قلب الأسد**.

إن نزاع العمالقة هذا، في المبارزة المقدَّسة الكبرى، ما تزال أصداؤُهُ تتردّد في التاريخ الحديث، والسياسات المعاصرة، في منطقة الشرق الأوسط. بل إنّ معناه يبدو أوسع وأعمق، إنه يبدو في كلّ الصراعات بين المسلمين والمسيحيين، حيثما كان ذلك على مدى العالم، من البوسنة إلى كوسوفو والشيشان ولبنان وإلى ماليزيا وإندونيسيا.

أما **صلاح الدين**، فيبقى حتى اليوم، نموذجاً للبطولة، في كل العالم الإسلامي. فهو الذي قام بتوحيد العرب. وهو الذي قهر الصليبيين في معارك

(1) يذكر المؤلف العرب والمسلمين، والعالم العربي والعالم الإسلامي والشرق الأوسط باعتبارها مترادفات (المترجم).

ملحمية. وهو الذي أعاد افتتاح القدس. وهو الذي رمى الأوروبيين خارج الأرض العربية. وفي كفاح العرب المعاصرين الذي لا ينتهي من أجل تأكيد عروبة فلسطين يظلُّ صلاح الدين رمزاً للأمل، وأُمثولةً تبلُغُ حدودَ الأُسطورة. ويستطيع الزائرُ لدمشق أو القاهرة أو عمان أو القدس الشرقية أن يخوض بدون عناءٍ في حديثٍ طويلٍ عن صلاح الدين (مع أيٍ كان). وذلك لأنّ تلك الذكريات القديمة شديدة الأهمية للحساسية العربية، ولأيديولوجيا التحرُّر العربي. وفي الغُرَف الصغيرة، التي لا يتسرَّب إليها الضوء، والأزقّة المعتمة بالقدس القديمة، والتي عاش فيها صلاح الدين حياةً متواضعةً بعد فتوحاته الكبرى، يجد المراقب كتاباتٍ من مثل: الله، محمد، صلاح الدين. تدليلاً على العلاقة الوثيقة التي يرتبط بها صلاح الدين بالله عز وجل (في وعي المسلمين). هكذا يبدو كأنما العالم العربي، ينتظر دائماً مجيء صلاح الدين الآخر. ففي خُطَب الجمعة من على المنابر من حلب إلى القاهرة وبغداد، ليس غريباً أن يسمع المرء الدعوة أو الدعاء من أجل ظهور «رجل» مثله يحرِّر القدس. فانتصاره الساحق على الصليبيين في موقعة حطين ما يزال حتى اليوم مثالاً للانتصار العربي على التدخل الغربي. وفي دمشق، وعلى مقربةٍ من باب السوق المركزية بالمدينة، سوق الحميدية، ينتصب تمثالٌ للبطولة الصلاحية، كأنما يبارك من موقعه الشاهق الساحة الرئيسية للمدينة. وعندما تتصاعد الاحتجاجات، كما حدث أخيراً بشأن المفاوضات بين سورية وإسرائيل حول الأرض المتنازع عليها؛ فإنّ مكان تجمُّع المتظاهرين، كان وما يزال من حول تمثال البطل صلاح الدين. أما الرئيس (الراحل) حافظ الأسد، فقد كان يضعُ في مكتبه رسماً لمعركة حطين، يغطّي جداراً بكامله. وكان الرئيس الراحل يحب أن يقود ضيوفه الغربيين لتأمُّل الصورة، كأنما يريد القول لهم إنّ «صلاحَ دينٍ» آخر لا بد أن يظهر، وإنّ «معركة حطينٍ» أُخرى لا بدّ واقعة. وعندما امتلأت شوارع دمشق بعشرات ألوف المشيّعين، للرئيس الأسد، في حزيران/ يونيو سنة 2000م؛ فإنّ (عرباً كثيرين ولا شكّ) كانوا يتذكرون (كما في كل

مناسبةٍ مشابهة) كيف كانت جنازةُ صلاح الدين في آذار/ مارس سنة 1193م.

بيد أنّ التبجيل الذي يحظى به صلاح الدين، لا يعود لمواهبه العسكرية وحسب؛ بل إنه يعود أيضاً لتواضُعه، وإيمانه، وتصوفه، وتقواه، وضبطه لنفسه.

أما ميراث **ريتشارد الأول** في إنكلترا فهو ليس أقلّ إثارة، لكنه مختلفٌ بشكلٍ ما من حيث الطبيعة. فهو إحدى الشخصيات الأكثر رومانسية في التاريخ الإنكليزي. ففي الأغاني الشعبية التي ترددت عبر القرون، وجرى الترنُّمُ بها على أَسِرَّة الأطفال وقت النوم، صار ريتشارد نموذجاً للفروسية. إنه الفارس الذي قاتل بشجاعةٍ من أجل مملكته، وكنيسته، والسيدة حاملة الفأس، والدرع والحصان. وقد تربَّيْتُ في طفولتي وفتُوَّتي على مسرحيات شكسبير وحكايات السير ولتر سكوت، المؤسَّسة على هذه المادة. فعلى تلال ڤرجينيا الشمالية حيث نَشَأتُ، كنت أُحب العَدْو وراء عربات الحَصَاد، وتلك التي توزِّع السَّماد، والمجرورة وراء الجياد الغليظة. وكنت أُحِبُّ أن أتخيَّلَ تلكَ الحيوانات جارَّةً وراءها عربات الحرب للملك آرثر والملك ريتشارد. وعلى التلال نفسها، وبعد أن بلغتُ سنّ الفتوّة، كانت بقعتي المفضَّلة لمراقبة غروب الشمس، تُسمَّىٰ هضبة أيڤانهو. وكان الوَلَهُ يشتدُّ بي لأولئك الفرسان ونسائهم اللطيفات اللواتي يظهرن في أفلام هوليود: أليزابيث تايلور، وجوان فونتاين، وروبرت تايلور في **أيڤانهو**. وإيرول فلين، وكلود راينز، وبازل راتبون، وأوليڤيا دي هاڤيلاند في **روبن هود**. وجيمس ماسون، وركس هاريسون، وجورج ساندرز، ولورنس هارڤي في **الملك ريتشارد والحروب الصليبية**. وكاثرين هيبورن، وأنتوني هوبكنز، وبيتر أوتول في **الأسد في الشتاء**.

لقد كان هناك شيءٌ ساحرٌ في كلّ ذلك القَصَص الرومانسي. مؤدّاهُ أنّ الفروق الهائلة بين التاريخ الحقيقي، والرومانسيات المتعلقة بالملك ريتشارد قلب الأسد، ما كانت تُقَلِّلُ من فتنة تلك الشخصية. فقد ظلَّ ريتشارد في أذهاننا

ذلك الفارس ذا الموهبة القتالية الكبيرة، والذي فهم الاستراتيجية والتكتيك متقدماً على أهل زمانه، كما أنه كان في المبارزة الفردية فارساً لا يُقهرُ شجاعةً ودُرْبة. أما مشروعه، بغضّ النظر عمّا تحقَّقَ منه، فقد ظلَّ عصياً على التصديق. وتحمل عودته من الأرض المقدّسة، وأسره في النمسا، سحر وفتنة الأوديسة الهوميرية. نتذكر ريتشارد بسبب إقدامه وجرأته، وغرامه، بالفخامة والمجد. لكن لا شكَّ أنّ أحداً لا يذكُرُهُ من أجل عمق إيمانه، أو أدبه، أو انضباطه.

وتحمل قصةُ الحرب الصليبيّة الثالثة أموراً جانبيةً أُخرى تُضيفُ لسحرها وإمتاعها: هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من الفرسان اللامعين لدى الجانبين، من مثل الفارس الأبيض جيمس دافيزن، أو الفارس العربي العملاق المسمّى بالطويل. وقد ناضل هؤلاء جميعاً بشجاعةٍ وتفانٍ من أجل إيمانهم وقناعاتهم ضمن تقاليد العصور الوسطى للفروسية. وتتضمن القصةُ أيضاً أشراراً مُثيرين للسُّخْط، من مثل ريجنالد من شاتيون، سيّد الكَرَك، والذي ارتكب الموبقات كلّها. كما تتضمن ليوبولد، دوق النمسا، الذي نقض عهد الله وسَجَن ريتشارد في طريقه إلى وطنه. وهنري السادس، الإمبراطور، الذي طالب بفديةٍ من أجل إطلاق سراحه، وكاد يؤدي بإنكلترا إلى الإفلاس. وراشد الدين سنان، رأس الحشاشين، الذي بعث الرُّعْبَ في قلوب الجميع بمن فيهم صلاح الدين. والإيرل جون، شقيق ريتشارد، والملك اللاحق الذي بعث أُسطورة روبن هود، ووقَّع الماغناكارتا، وحاول سرقة مملكة أخيه في غيابه. وتبرزُ في الحكاية أيضاً إليانور من أكيتان، أُم ريتشارد، وملكة إنكلترا وفرنسا. وقد كانت نِسْويةً متحمسةً، برزت في بلاطها ببواتييه ـ الذي نشأ فيه ريتشارد ـ سيطرة النساء وتقدمهنّ على الرجال. أما فيليب أوغسطس، ملك فرنسا الداهية، ورفيق ريتشارد في الحب والحرب، فقد حاول النَيلَ من سطوة محبه الأول، في مغامراتهما الحربية المشتركة، وخانه في الحقيقة باندفاعة العاشق المرذول.

وتأتي أخيراً أليس، نموذج ذلك الزمان للنساء الملكيات الأوروبيات: عشيقة هنري الثاني والد ريتشارد، والأخت غير الشقيقة لفيليب أوغسطس، وخطيبة ريتشارد المُبعَدة، والتي انتهى بها الأمر في سجن إليانور.

كانت الأراضي المقدسة هي مسرحُ تلك المواجهة الملحمية. والقيام برحلةٍ متخيَّلةٍ مع ريتشارد وصلاح الدين عبر تلك الأراضي، أمرٌ مختلفٌ تماماً عن الرحلة مع السيّد المسيح عليه السلام، أو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. تبدأ القصة في بَرّيَةِ مؤاب، حيث كان موسى عليه السلام رهينةً لمدة أربعين سنة. ثم تجري الحركةُ إلى حطين، التي يُقال إنه في جبالها كانت موعظة الجبل. ثم يكون التقدم نحو القدس، التي استعادها صلاح الدين ودافع عنها، والتي من على قبة صخرتها عُرِج بالنبي محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم في معراجه المعجز إلى السماء.

وليس من الصعب على الإطلاق تصوُّرُ حماس المُشاة الصليبيين، وهم يخطُون خطواتهم الأولى على الأرض نفسها التي مشى عليها السيّد المسيح في قيسارية ويافا وعماوس. كما أنه ليس من الصعب تقدير المشاعر العميقة التي حرَّكت للقتال، بل وللقتل، لسوء الحظ. والأمر نفسه يمكن قوله عن الفارس المسلم الذي بذل أقصى الوسع والطاقة للدفاع عن أرضه وعقيدته. فالقدس مقدَّسةٌ لدى المسلمين، واليهود، والمسيحيين. وهي حجر الزاوية لهم جميعاً. وكما في هذه الأيام فقد كانت أصوات أجراس الكنائس تمتزجُ بنداء المؤذّنين للصلاة، وأناشيد اليهود المتدينين. هناك يقف مسجد عمر بجوار كنيسة القيامة، وليس بعيداً عن الحائط الغربي. فالمدينة المقدسة تعيش في أحلام وخيالات كلّ المشاركين في أحداث (الحروب الصليبية). ولا شكّ أن توتُّرات المشاعر تُجاه القدس، من أجل الاستيلاء عليها أو الدفاع عنها من أجل الدين، كانت عاليةً لدى الجميع، وهي التي زادت من حِدَّة النزاع، وما يزال الأمر على النحو نفسه إلى اليوم.

وفي أحاديثي مع العلماء بسورية والأردن والقدس الشرقية، اتضح لي كم تختلف النظرة إلى الحملات الصليبية من جانب العرب. فالقرنان الثاني عشر والثالث عشر، ليسا قرني الحملات الصليبية الخمس وحسب في نظر العرب، بل إنهما في نظرهم كفاحٌ مستمرٌ ومستميتٌ لمقاومة السيطرة الأجنبية، واستعادة البلاد من تحت الاحتلال. إذ تقسّم الرؤية العربية الحروب الصليبية إلى ثلاث مراحل: مرحلة الانقسام، والتي مكّنت الصليبيين من الاستيلاء والاستقرار في الحملة الأولى، ومرحلة تجميع القوى والبدء بمقاومة الصليبيين، وأخيراً مرحلة الانتصار، وإخراج الصليبيين من القدس وسواها وهي مرحلة صلاح الدين.

وما تزال رمزيات الحرب الصليبية الثالثة تؤدي دوراً في التاريخ الحديث، والسياسات الحديثة، في الشرق الأوسط. ففي 11 كانون الأول/ديسمبر سنة 1917م عندما دخل الجنرال إدموند اللنبي المدينة المقدسة من باب يافا ليتقبّل استسلام الأتراك الذين تركوا وراءهم أربعمائة سنة من الحكم؛ تحدثت الصحف كثيراً عن ذاك الدخول باعتباره الحرب الصليبية الأخيرة. وفي تموز/يوليو سنة 1920م، عندما استولى الجنرال الفرنسي هنري غورو على دمشق؛ مضى إلى قبر صلاح الدين الواقع في حرم المسجد وجواره، وخاطبه قائلاً ـ حسبما يذكر العرب المُحدَثون ـ: «ها قد عدنا يا صلاح الدين، وإنّ وجودي هنا يعني انتصاراً للصليب على الهلال!».

وعلى مدى القرون الماضية، ظلت قلعة بوفور الصليبية (قلعة الشقيف) في جنوب لبنان موقعاً استراتيجياً، وجائزةً للجيوش المنتصرة في الصراع على الشرق الأوسط؛ ولذلك فقد تغيَّر المسيطرون عليها عدة مرات. وفي سنة 1982م حوصرت من جديد؛ وهذه المرة من جانب الجنرال أرييل شارون، تماماً كما فعل صلاح الدين قبل تسعة قرون. وفي مايو/أيار سنة 2000م أخلى الإسرائيليون القلعة، كما فعل رينولد من صيدون في سنة 1187م، حين سارع الفلسطينيون إلى اقتحام القلعة مهلِّلين. وفي إسرائيل المعاصرة؛ فإنّ الجادة رقم

1 ـ المعروفة باسم باب الواد بين سهل الرملة والقدس ـ تخترق تلك التلال التي اجتازها ريتشارد في حملته باتجاه القدس سنة 1192م، وما تزال تنتشر متهالكةً على جوانب تلك الطريق بقايا العربات المدرَّعة وناقلات الجند التي دُمِّرت في «حرب التحرير» الإسرائيلية سنة 1948م؛ وفي هذا السياق، قال لي صديقي ديڤيد باسوف، أحد المشاركين الأوائل في الصراع الصهيوني على فلسطين، والذي صار فيما بعد أستاذاً للتاريخ بالجامعة العبرية: «إنّ الفرقَ أننا أنجزنا ذلك، أمّا هو فلم يفعل!».

أما الأدبيات العربية المعاصرة فتنظر إلى اليهود باعتبارهم الصليبيين الجدد. فهم أوروبيون في الغالب، اجتاحوا الأرض العربية واحتلوها. فكما فعل الصليبيون من قبل، عندما قامت حفنةٌ منهم بالسيطرة على (ديار) العرب من خلال سلسلةٍ من القلاع والحصون المنيعة، والتجمّعات الحَضَرية الصلبة، فهكذا اليوم ـ كما يقول المثقفون العرب ـ تسيطر إسرائيل على الجماهير العربية بقوتها العسكرية المدعومة من الأمريكيين، ومستعمراتها المحصَّنة المحوطة بالأسلاك الشائكة. لكن العرب يؤمنون إيماناً لا يتزعزع بأنّه من خلال الكفاح، والسيرورة التاريخية الحتمية؛ فإنّ الإسرائيليين، مثل ما حدث للصليبيين، سيُرغمون على الخروج من فلسطين. فالأيديولوجيا العربية (اليوم) تثق بالتطورات التاريخية الطويلة المدىٰ: لقد استغرق الأمر ثمانين سنة بالنسبة لصلاح الدين وسَلَفَيه نورالدين (ووالده عماد الدين) زنكي، حتى أمكن لهم زعزعة الوجود الصليبي وطرده. بينما لم يمضِ على وجود الكيان الإسرائيلي في فلسطين غير خمسين سنة ونيِّف!

إن مشكلة العرب اليوم، مثل مشكلتهم في القرن الثاني عشر الميلادي، أنهم غير منظَّمين، ويسود صفوفَهم الانقسام والتشرذُم. وإذا كان من الضروري أن تظهر شخصيةٌ مثل صلاح الدين لجمع قبائل العرب الألف؛ فإنّ عدة قادةٍ عرب كانوا يطمحون لانتزاع هذا الدور. ففي الخمسينات حاول جمال عبد

الناصر باستمرار استعادة ذكرى صلاح الدين، من أجل إقامة الجمهورية العربية المتحدة، ولإرغام البريطانيين والفرنسيين على مغادرة سيناء وقناة السويس. وخلال حرب الخليج (الثانية)، وعلى الرغم من شماتة القادة العرب الآخرين، الذين انحاز أكثرهم إلى التحالف الدولي، ولم يقفوا إلى جانبه؛ فإنّ صدام حسين حاول ارتداء رداء صلاح الدين، مذكِّراً باستمرار بحقيقة أنه هو وصلاح الدين مولودان في البلدة نفسها في كردستان، بلدة تكريت! وعندما انهارت المحادثات لحلّ مشكلة الشرق الأوسط (في كامب ديڤيد) في صيف سنة 2000م، خرجت جماهيرُ قطاع غزة عن بكرة أبيها للاحتفال بالقائد ياسر عرفات، الذي لم يتنازل، رافعةً رايات الفرح بظهور «صلاح الدين الفلسطيني». وفي تلك الفترة نشر الكاتب الإسرائيلي عاموس أوز في النيويورك تايمز مقالةً ذكّر فيها أن «شبح صلاح الدين» يُخيِّم على الشرق الأوسط. وأخيراً فإنه عندما اندلعت الانتفاضة عبر إسرائيل والضفة الغربية على أثر زيارة أرييل شارون لـ«جبل الهيكل» في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 2000م؛ ظهرت مجموعاتٌ من الفتيان أطلقت على نفسها اسم «كتائب صلاح الدين» اجتاحت الأزقة الضيِّقة في القدس الشرقية، تمرداً واحتجاجاً.

كانت الحرب الصليبية الثالثة حرباً مقدَّسةً؛ بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. لكن، وكما يحدث في سائر الحروب؛ فإنّ كثيراً مما حدث فيها كان بعيداً جداً عن القداسة. بل إن كثيراً مما حدث كان انتهاكاً لحُرُمات الدين نفسه: مثل المذابح ضد المسلمين والأقليات، والجشع البالغ إلى الغنائم، وانطلاق غرائز الطَمَع المخيفة، والقتال والقتل بدون داعٍ أو هدف. وكل ذلك باسم التقوى والورع. هنا كانت الحرب المقدسة في طفولتها، لكنها مورِسَتْ بأقصى درجات العنف والوحشية. وقد كانت في الحقيقة حرباً مسيحيَّة مقدَّسة، جوبهت من جانب المسلمين بما يُعرفُ بالجهاد. والجهادُ في الواقع حربٌ دفاعية، شرطُ مشروعيتها العدوان من جانب الكَفَرَة

المعتدين. ففي القرآن الكريم يُطلبُ من المؤمنين أن ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: 190]. فإذا خاض المؤمنون هذه الحرب المقدَّسة والدفاعية؛ فإنَّ ثواباً إلهياً عظيماً سيكونُ جزاءهم (في الدنيا والآخرة). ولهذا فإنّ من سخرية التاريخ أن تبعث كلمة «الجهاد» الرعب في قلوب بعض الغربيين وحكوماتهم، لأنهم يربطون الجهاد بالإرهاب وبالتعصُّب الإسلامي. والحقُّ أنه لا شيءَ في التاريخ الإسلامي يُضاهي إرهاب الصليبيين أو التعصُّب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي!

في ربيع سنة 2000م عادت الحروب الصليبية للظهور في دار الإسلام. ففي يوم الأحد السابق على حجِّه إلى الديار المقدَّسة، أصدر البابا يوحنا بولس الثاني بياناً اعتذارياً عن سائر خطايا الكنيسة الكاثوليكية باسم الدين، طَوالَ الألفي سنة الماضية. سمَّىٰ البابا بيانه باسم: الذكرى والمصالحة. وقد جاء هذا الإعلان بعد اعتذار سنة 1992م عن اضطهاد غاليليو، والذي كان عملاً آخر من أعمال الكشف عن الحِقَب المظلمة في تاريخ الكنيسة على رأس الألفية الثالثة. وقد أطلقَ البابا على عملية المراجعة هذه اسم: «التطهّر التاريخي». ومن بين الأعمال الشنيعة التي ارتُكبت بحق اليهود والمسلمين والنساء والجماعات الإثنية؛ فإن الحروب الصليبية خُصَّت بالذكر (في ذاك البيان). وقد تلقَّىٰ المسلمون في الشرق الأوسط بيانَ البابا المذكور بفرحٍ شديد. ففي سياق الاعتذارات الدينية التي أصدرها البابا، صارت الحروبُ الصليبية مُدانةً كما دينت المحرقة ضدّ اليهود. ولذلك فقد انتظر المسلمون أن يفصِّلَ البابا مقاصدَهُ من وراء إصدار الاعتذار عندما يزور إسرائيل. لكنّ البابا لم يقل شيئاً بهذا الصدد أثناء زيارته، فظهرت خيبةُ أملٍ عَبَّرَ عنها المفتي الأكبر للقدس: «لقد كانت هناك مذابحُ كثيرةٌ في العالم، فلماذا تكون الهولوكوست بالذات هي الأكثر أهمية؟ أما عندما يأتي الأمر لقضيتنا، فلا ينتبه أحد، وسواءٌ أكان ذلك

متعلّقاً بمذابح الصليبيين ضدّ المسلمين أو المذابح التي ارتُكِبت بحقّ الفلسطينيين من جانب الإسرائيليين. وسنظلُّ نُدينُ تلك المذابح مراراً وتكراراً لتذكير العالَم بما لَنَا عليه».

عدتُ إلى القدس، بعد أسابيع على زيارة البابا لها. كان الوقت أسبوع عيد الفصح المقدَّس عند المسيحيين لأنه احتفالٌ بقيامة المسيح. وكان (بالمصادفة) وقت احتفال المسلمين بعيد الأضحىٰ، واليهود بعيد الغفران. وعندما كان الجميع يتزاحمون حول الصليب المقدَّس، غلبت عليَّ نزعة الكاتب وليس الحاج. ولذلك فقد أردتُ أن أرى من جديد سيف غودفري دو بويون، الذي ما عاد ظاهراً في كنيسة القيامة، ليس لسخطٍ عليه أو رضىً عنه؛ بل لأنه وُضِع ضمن خزائن الذخائر الثمينة لأقدس كنائس المسيحية في العالَم. وكان مارك توين الذي زارَ الأرض المقدَّسة سنة 1867م مثلي تماماً في الاهتمام لأمر سيف دو بويون؛ لكنه كان ما يزال يعيش أيضاً في إحساسات وذكريات تلك القصة العاطفية: «لقد جرّبتُ سيف غودفري القديم في مسلمٍ فشطره إلى نصفين مثل أنشوطةٍ معقودة... لقد تملَّكني روح الحقد، ولوٍ كانت هناك مقبرة لأهلكتُ كلَّ الكفّار الذين بالقدس. مسحتُ الدم عن السيف الداثر وأعدتُه إلى الكاهن. ما كنتُ أُريد للدم الجديد المُراق أن يُزيل اللطخات القديمة التي عكَّرت رُواء ذاك المُهنَّد يوماً ما قبل زُهاء السبعمائة سنة».

على مقربة من حُجيرة الاعتراف، جلس كاهنٌ فرانسيسكانيٌّ نحيلٌ، أغبرَ شعر الرأس، في ملابسه الداكنة، يتأملُ ما حوله بنظرة صبيٍ هجره خُلاَّنه، منتظراً أن يأتيه تائب. اقتربتُ منه، وعرفتُ أنه الأخ ماثيو من بيتسبرغ. بدا مسروراً بتجاذب أطراف الحديث. ووافق بطيب خاطرٍ على أن يُريَني السيف. كان الزمان أُسبوع الفصح بالقدس. وسألته كيف يمكن عيشُ التجربة الصوفية بالمدينة في هذا الزمن الغني؟ وأي قداديس ينبغي أن أحضر؟ وماذا حدث

لاحتفالية موكب الصليب؟ وأين تجري الاستعراضات الأفخم؟ وأية كنيسةٍ هي صاحبةُ الاحتفالات الأروع بالقيامة؟

نظر الكاهن إليَّ بهدوءٍ وتأمُّل، ووضع يده الحانية على ذراعي، وقال: «أيها الشاب! القدس ليست باريس. لا نملك كاتدرائياتٍ ضخمةً هنا. المهم في القدس هو الكامنُ في قلبك». ثم دفع صندوقاً قديماً مملوءًا بِحُلَلٍ كهنوتية داثرة، ليستلَّ من تحتِها السيفَ القديم.

جيمس رستون (الابن)

كانون الأول/ديسمبر 2000